بطولة ملك

(٥)

السَّاحِلُ الشَّرْقِيُّ

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثُّنَيّان

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثُنيّان، عبد العزيز بن عبد الرحمن

الساحل الشرقي. - الرياض.

٢٧ص، ١٧ X ٢٢ سم (سلسلة بطولة ملك؛٥)

ردمك: ٦-٤٧٦-٢٠-٩٩٦٠

١- عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك السعودية

٢- السعودية - تاريخ الملك عبد العزيز ٣- كتب الأطفال - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٨/٤٠٨٦

ردمك: ٦-٤٧٦-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٨/٤٠٨٦

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

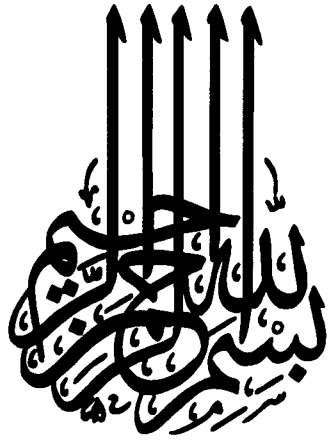
بسم الله الرحمن الرحيم

السَّاحِلُ الشَّرْقِيُّ

. . . ونزلَ البطلُ من فوق ظهر حصانه، وسجدَ لله شكراً أن نجحت خطته وأفلح تدبيره.

كم أنتَ عظيمٌ أيها المؤسسُ! وكم كنتَ داهيةً أيها الراحلُ! تقود وتُخطط، وتخشى الله، وتراقبه، وتنزل من صهوة حصانك، وتُعفِّر وجهك في التراب شكراً لله.

إنه الإيمانُ واليقينُ، إنها العظمةُ والفرحة.

حَدَث هذا أثناءَ استرداد الأحساء. إنها واقعةٌ رواهَا الملكُ عبدُ العزيز - رحمَه الله - حيثُ قال:

«هاجمتُ الأحساءَ على غفلة، واستوليتُ عليها بعد معركة فاصلة بيني وبينَ الأتراك، وبعد انتهاء المعركة- وأنا على فرسي- جاءني الله برجلٍ قدّمه لي إبراهيمُ القصيبي وقالَ: إنه محمدٌ أفندي مديرُ مالية الأحساء.

فسلَّم هذا عليَّ وقالَ: يا طويلَ العمرِ، يوجدُ في القصر عشرةُ آلاف ريال.

فقلتُ: عسَى ألاَّ تكونَ قد نُهبتْ.

فقالَ: لا. أنا مررتُ بالقصرِ ووجدتُ الأقفالَ سليمةً.

فبعثتُ معَه بعضَ رجالي، وقلتُ: حافظوا عليها إذا وجدتموها.

وبعدَ ذهابه ترجَّلت عن فرسي، وسجدت لله شكراً».

وإن لعودة هذا الإقليم قصةً؛ ولرَجْعَته بطولةً، ولاحتوائه دهاءً.

فقد تلفَّت البطلُ إلى بقية أجزاء الوطن، إلى الأرض التي حكمَها أهلُه وأجدادُه، وإلى المجد الذي كانَ.

فقد اشتد الساعدُ، وعظُمَ الحُكمُ، وتنامت السلطةُ، وخنعَ العصاةُ، وأطرق المناوئونَ وترقَّبُوا. وهمَّ بالسَّاحل الشرقي، ونظرَ إلى إقليم المياه والأشجار، وتحرَّكَ للمنفذ البحري، فلا مُلكَ بدونه، ولا سلطانَ إلاّ به.

لقد كان هذا الإقليم جزءاً من وطن الأهل والأجداد؛ ولكنها الدنيا تدورُ ولا تدومُ؛ فقد استولَى عليه الأتراكُ عام ١٢٨٨هـ،

١٨٧١م، إبّانَ اختلاف أبناء الإمام فيصلِ بنِ تركي، جدِّ الملكِ عبدِ العزيز، عليهما رحمةُ الله.

وكانَ يتولّى إدارةَ الأحساء والٍ تابعٌ لحاكم البصرة من قبَل تركية. وفي سنة ١٣٣١هـ/ ١٩١٣هـ اضطرب هذا الإقليم الشرقي، واختفى الأمن فيه، وساد النهب، ولم يستطع الوالي التركي السيطرة على البدو الذين ينهبون ويقطعون الطريق.

وحرَّك الملك عبقريَّتَه، وأظهرَ دهاءَه، وقررَ السيطرةَ والاستيلاءَ، وأخفَى أمرَه، فرمَى خيُوطَ البداية، ونشرَ الحَبَّ للطائر، وكتمَ نيتَه، وأظهرَ للأتراك التعاونَ، وأبدَى لهم الطمأنينةَ.

وخرجَ الملكُ في شهر ربيع الأول عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م من الرياض إلى الأحساء، ونزلَ على ماء الخَفْس الواقع في الطريق إلى الأحساء حتى آخر الشهر، وأغارَ على بعض القبائل المذنبة، وأخذَ مواشيَهم ولم يكن قصدُه تلكَ الباديةَ، وإنَّما يريدُ شيئاً آخرَ، كمَا قالَ أبو حَيَّانَ البَصريُّ:

يا مَن أحِبُّ ولا أسَمِّي باسْمهَا
إيَّاكِ أعْنِي واسْمَعِي يا جَارَه

وتقدمَ نحو الأحساء، فذُعر الوالي التركيُّ، وكتبَ إليه يستطلعُ الخبرَ، وما القصد؟ فقال الملكُ الداهيةُ:

إنه قدمَ إلى المنطقة لمعاقبة بعض فئات من البادية، اعتدَتْ على قوافلَ تجارية تابعة لأنصاره، وإنه أغارَ عليهم وحاسبَهم، ويريدُ أن يدخلَ أتباعُه البلدةَ لشراء الأمتعة والزاد.

والحقيقة هي الرغبة في معرفة الوضع، وتجهيز الجند، وشراء ما يحتاج إليه الجيش وعاد الملك إلى الرياض وتركَ قواته في الخفس.

وفي تلك الفترة يصل إلى الرياض رجلٌ إنجليزيٌّ قادمٌ من الشام بطريق الجوف، اسمُه (ليتشمن). وكان هذا الرجلُ يتقنُ العربيةَ، ويتكلمُ لهجةَ البادية، ويلبسُ لباسَهم، ويركبُ مركبَهم، ويجلسُ جلستَهم.

وسألَه الملكُ عبدُ العزيز وقد رابَه الأمرُ: ما القصدُ من سياحتك؟

فأجابَه قائلاً: إني جغرافيٌّ، وأريدُ أن تساعدَني لاجتياز الرّبع الخالي من واحة يبرين إلى عُمان.

قالَ الملكُ عبدُ العزيزِ: إن قدومَك إلينا علَى هذا الوجه خَطأ، فلا

علمَ لنَا به، وليسَ معكَ توصيةٌ من الحكومة البريطانية.

قالَ ليتشمن: إني رجلٌ إنجليزيٌّ طالبُ علم، وأنتُم مشهورونَ بإكرامكم الإنجليزَ، وبخاصة العلماء منهم.

وأعمل الملكُ فكرهَ، ورغبَ في الاستفادة من هذه الفرصة؛ فقد استرابَ من الرجل، وشكَّ في هدفه، وظن أنه يتجسَّسُ للأتراك، ولهذا قرَّرَ اهتبالَ الفرصة؛ فهو عازمٌ على إخراجِ الأتراكِ من الأحساء، ومقررٌ منازلةَ جنودهم هناك.

إنها الهديةُ الثمينُة، ولهذا قررَ أن يستخدمَ هذا الرجلَ في طمأنة الخصم، وفي التمويه على العدوِّ الذي تقررَتْ منازلتُه، وحانَ حينُه، ودنَا موعدُ اللقاء معه.

ولذلكَ قالَ الملكُ للرجل إنه لا يستطيعُ أن يجيبَ طلبَك غيرُ التُّرك في الأحساء، فأرَى أن تذهبَ إلى الوالي هناك، وأنا أكتبُ إليه بخصوصك.

وكتبَ الملكُ كتاباً أعطاه الرجلَ، وقالَ فيه: إن هذا الرجلَ مجهولٌ لدينا، وهو واصلٌ إليكُم، فلكم فيما يبغي الرَّأي الموفَّقُ إن شاء الله.

ورحلَ ليتشمن، وغاب عن الأنظارِ، وتوجَّه برسالةِ الملكِ عبدِ العزيزِ إلى الأحساءِ.

وبعدَ برهة من الزمن شدَّ الملكُ رحالَه ورجعَ إلى معسكرِه في الخفس.

وفي المعسكر الحربيِّ تأمَّلَ الملكُ عبدُ العزيز الموقفَ، فالأحساءُ لا بد من السيطرة عليها، والأتراكُ لا بدَّ من إجلائهم؛ فالوالي التركي يعملُ دائماً على إغراء البدو بعداوة الملك، والسلطات التي يتلقَّى منها الأوامرَ في بغدادَ بينها وبينَ الملك فجوةٌ وخلافٌ؟! فهم يدعمونَ ابنَ رشيد، وفي آخر لقاء كان لهم مع مندوب الملك عبد العزيز أحمد بن ثنيان صار تطاولٌ وتعالٍ في القول؛ فقد قال والي بغدادَ آنذاك جمال باشا لمندوب الملك عبد العزيز: إن ابنَ سعود لا يعرفُ مقامَه، وقد غرَّه أن صفَح عنه المشيرُ فيضي باشا - يقصد القائدَ التركيَّ الذي جاء لمناصرة ابن رشيد - فإن كانَ لا يقبلُ بما تطلبُه الحكومةُ فإنَّ في إمكاني أن أخترقَ نجداً من الشَّمالِ إلى الجنوبِ بطَابُورَينِ.

وقد كانَ جوابُ الملك الشجاع أن كتبَ إليه، وقال: «قلتُم إنكُم تستطيعونَ بطابورين أن تخترقُوا بلادَ نجد من الشمال إلى الجنوب.

ونحنُ نقولُ: سنقصرُ لكم الطريقَ قريباً إن شاءَ اللهُ. . . ».

وقد أرسلَ الملكُ عبدُ العزيز كتابَه هذا إلى وكيله في البصرة عبد اللطيف المنديل، وأمَره أن يسلِّم هذه الرسالةَ إلى السلطات التركية هناكَ، ثم كتبَ إليه، وقالَ له: «إذا سألكَ التركُ هل أنتَ مندوبُ ابن سعود؟ فقلْ لهم: إني عثمانيٌّ.

وكان الملكُ يخشَى على مندوبه أن يلحقَ به ضررٌ عندمَا تعلمُ السلطاتُ هناكَ بهجومه على الأحساء.

ووصلت الرسائلُ إلى المندوب السعوديِّ الذي قام بدوره بتسليم الأتراك الرسالةَ الخاصةَ بهم، ولم ينكرْ أنَّه نجديّ أو وكيلٌ للملك عبد العزيز، ولم يأخذْ بنصيحة الملك؛ فقد غلبتْه الحميَّةُ، وأخذته النخوةُ، وقال لهم: لقد جهلتُم قدرَ هذا الرجل، وها هو الآن يعرِّفُكم بنفسه.

وخشيَ الملكُ إحدى القبائل الموجودةَ هناك، وخافَ من أطماعهم، ولهذا سيَّرهم إلى الشمال، ودفعَهم لمحاربة قبيلَة أخرَى، حيثُ كانَ العداءُ بينَ القبيلتَين قائماً.

واستطاعَ بذلك أن يبعدَهم عن ساحة اللقاء وأن يشغلَهُم بخصومهم،

وهذه هي العبقريةُ، وهذا هوَ الدهاءُ.

وسارَ من معسكره في الخفس، ونزلَ في موقع يقالُ له السِّيفة قربَ الهفوف، وقد لقيَه في الطريق مندوبٌ من الوالي التركي يحملُ كتاباً يسأله فيه: من أيِّ الجهات جاء الإنكليزيُّ إلى الرياض؟

وقد قالَ الملكُ للنجاب ناقل الرسالة: غداً ـ إن شاءَ الله ـ أنا بنفسي أُعْلِمُ الواليَ. وأمسك بالنجاب.

وكانَ في الأحساء رجالٌ ثقاتٌ، ولاؤهم للملك عبد العزيز، ورغبتُهم في سلطته، ويتمنَّون مجيئه، ويَنشُدونَ عونه، ويطلبونَ سيطرَته، ولهذا ما إن اتصلَ بهم الملك حتى هبُّوا يزوِّدونه بالمعلومات الوافية عن القوات التركية عدداً وعدةً وتحصيناً، وأعلموه بالصعوبات، وعُلُوِّ أسوار الحامية.

يقولُ رحمَهُ الله: لقد كُنا على مَرْأىً من الهفوف، ومن الرابية التي كنتُ جالساً عليها استطعتُ أن أرَى بوضوح أسوارَ القلعة الحصينة التي كانت تُشرفُ على البلدة، كان فُؤادي مُثقلاً بالحيرة، وكُنْتُ أوازنُ بينَ فوائدِ هذا العمل وأخطاره.

إنه التحدي؛ فالحامية التركية مُتحصنة، والسور أمامه، ولكنها العزيمة والشجاعة، والثقة بالله، وفوق ذلك ففي داخل المدينة أصحاب وأنصار.

ولهذا قرر البطل - رحمه اللهُ - الحرب والهجوم، وأرسلَ إلى أولئك الرجال الموالين له في الهفوف يقول: إننَا هاجمونَ في هذه الليلة، وكلُّ صعب يسهلُ بحول الله.

وبعدَ غروب الشمس بثلاث ساعات انطلقَ الملكُ البطلُ بأتباعه من معسكره، حتى وصلَ فجأةً أمامَ أسوار مدينة الهفوف، وكانَ ذلكَ في اليوم الخامس من جُمادَى الأولى ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م، وكان عددُ الرجال الذين معَه قرابةَ تسعمائة مقاتل، أغلبُهم من الحاضرة، وقبلَ الهجوم خطبَ في رجاله، وقالَ لهم: إننا هاجمونَ على الأتراك في القلعة، وإننا منتصرونَ بإذن الله.

امشُوا إلى غرضكم، ولا تضجُّوا وإذا كلمكُم أحدٌ فلا تجيبُوه، حتى وإن ضُربتُم بالبنادق- ونحنُ في الطريق- فلا تضربُوا. أمَا وقَد صِرتُم في القلعة فحاربُوا من حاربكم، ووَالُوا من وَالاكُم.

ثم نَبَّهَهم لأمر جلل؛ فهو القائدُ الربانيُّ، يخشَى الله ويخافه، ويَغَارُ لحرماته، وقالَ لجنده:

« البيوتَ البيوتَ، لا تدخُلُوها، والنساءَ النساءَ لا تَدنُوا منهنَّ».

لكَ الله أيها الراحلُ! راقبتَ الله فأعزَّك، ونصرتَ الله فنصرك، وحفظْتَ محارمَه فحفظَك، وصُنْتَ أعراضَ المسلمينَ، فصانك إلهُ العباد، ونصرك ربُّ الأنام، وملَّكَكَ مَلِكُ الملوك.

وهرولَ الملكُ الشجاعُ على قدمَيه، ومشَى الجنودُ من ورائه على الأقدام، وأمَّهم نحوَ المجابهة، وسبقهم إلى المنازلة، وكانَ الجندُ يحملونَ معَهم جُذوعَ النخل وحبالَ التسلّق؛ فالحاميةُ محصنةٌ، والسورُ عال، ولا بدَّ من اجتيازه وتسلُّقه. ولما وصلُوا إلى السور قسَّمَهم الملكُ إلى ثلاثَ فرق. فقالَ للفرقة الأولى: أنتُم تسيرونَ إلى الباب الجنوبيِّ، فتقبضونَ على الحرسِ، وتستولونَ على الباب وما يليه.

واتجهَ إلى الفرقة الثانية، وقال لهم: وأنتم تسيرون إلى السرايا، لعل المتصرِّفَ (الوالي) فيه، فتأسرُونَه.

أمّا الفرقةُ الثالثةُ فقال لها: تفرَّقوا في أبراج السور.

ثم توجَّهَ للجميع، وقالَ لهم: هذه هي أوامري فاعملوا بهَا، ولا تتعدَّوْها. وكأنِّي به يردِّدُ قولَ المتنبِّي:

ومَنْ طلبَ الفتْحَ الجليلَ فإنَّمـــا

مفاتيحُه البِيضُ الخِفافُ الصَّوَارِمُ[1]

وسَمَّى الرجالُ بالله وكبَّرُوا، وباشَرُوا ربطَ الجذوع بالحبال، فصنعُوا منها سُلّماً، تسلَّقَه عشرةٌ من ذَوي الشَّجاعةِ والبُطولةِ، وسألَهم الحرسُ: مَن أنتُم؟ فلَم يجيبُوا.

وتتابع المهاجمونَ السعوديونَ في الصعود والتسلّق إلى الداخل.

وكانتْ كلُّ فرقة عندَ اكتمالها داخلَ السورِ تتوجَّهُ إلى الجهة المُعَيَّنَة لها.

وبعدَ تكاثُر المقاتلين في الداخل حدثَتْ ضَجَّةٌ وجلبةٌ داخلَ الحصن، فاستيقظَ العساكرُ والأهالي من نومهم، واستولَى عليهم الخوفُ، وحلَّ بهم الذُّعرُ، فلا يدرونَ مَن المهاجمون؟ ولا مَن المقاتلون؟ وعلت الأصواتُ وأطلَقَت البنادقُ نيرانَها.

(١) البيض: السيوف. الخفاف: المرهفة الحادة. الصوارم: القواطع.

وأمرَ الملكُ عبد العزيز أحدَ رجاله أن يصعدَ إلى السُّور وينادي: المُلْكُ لله ثم لعبد العزيز، مَن أرادَ العافيةَ فليلزمْ مكانَه.

وسمعَ الناسُ الصوتَ فاستبشرُوا، وهتفوا: أهلاً وسهلاً، وسمعاً وطاعةً، وجاؤوا بالمياهِ لرجالِ الملكِ، ورحَّبُوا بهم، وهلَّلُوا بمَقدَمِهم.

وفورَ دخول الملك البلدةَ توجَّهَ إلى منزل الشيخ عبد اللطيف المُلا، وأعْلَمَ أعيانَ المدينة بوجوده هناك، فجاؤوا مسرعينَ يبايعُونَه على الحكم، ويقدِّمونَ له الوَلاء والطاعةَ.

أمّا جنودُ الحامية التركية فقد لجؤوا إلى الحصون، واعتصمُوا بداخلها. وبعدَ انبثاقِ الفجرِ شرعُوا يطلقونَ البنادقَ والمدافعَ على غيرِ هُدًى.

وعندَ الظهر جيءَ للملك عبد العزيز بأسير من الأتراك، وهو ضابطٌ طاعنٌ في السنِّ، فأرسلَه الملكُ رسولاً إلى المتصرِّف وإلى قائد الحامية، وقالَ له:

قلْ لَهم أن يسلِّموا إذا كانوا يبغونَ العافيةَ، ونحنُ نؤمِّنهم ونرحِّلُهم إلى بلادهم، أمّا إذا أبَوا فليستعدُّوا للقتال، فسنهاجمُهم في مراكزهم ساعة هاجمْنَا البلدَ ليلةَ البارحة.

وبلَّغَ الرَّسولُ الرسالةَ، وقَبِلَ الأتراكُ الأمانَ، ثمَّ سَلَّمت الحاميةُ التي كان عددُها ألفاً ومائتي جندي.

وأذنَ الملكُ عبد العزيز لهم بالرحيل، وقالَ لهم: «لا ننزعُ من الجنديِّ العثماني سلاحَه، أمَّا المدافعُ والذخائرُ فتبقَى في مكانها في الحصون».

ثمَّ جهَّزَهم بالركائب، ورحَّلَهم وعائلاتِهم وأمتعتَهم من الهُفوفِ إلى العُقَيرِ.

وأرسلَ معهم أحمدَ بن ثنيَّانَ، وهو الرجلُ الذي أرسلَه إلى الوالي التركي في بغدادَ؛ وذلك ليؤمِّنَ لهم الطريقَ ويسهِّلَ لهم الرحيلَ. ومن العقير أبحرُوا إلى البحرين.

وبعدَ أن اطمأنَّ الملكُ، وسيطرَ على الهفوف، وتحقَّقَ له عودةُ ذلك الإقليم بعث سريةً بقيادة عبد الرحمن بن سُوَيلم إلى القطيف، فتمكَّنَتْ من دخولها دون صعوبة؛ فلمْ يكنْ للأتراك في القطيف

سوى شرذمة قليلة من الجنود، فرُّوا في السفن هاربينَ حين رأوُا القوات السعودية قادمةً.

وهكَذا تحقق للملك توحيدُ الساحل الشرقيِّ، والسيطرةُ على منطقتي الأحساء والقطيف، ورُفعت رايةُ المَلك هناك.

وصارَ للوطن منفذٌ بحريٌّ، وساحلٌ خليجيٌّ، ورِئةٌ يتنفَّسُ بهَا معَ العالم، ولم يعُدْ معزولاً في صحرائه.

وأصبحَ ذلكَ الإقليمُ الغني بخيراته مصدر تموين، ومكانَ تجارة، ومقرَّ اتصال.

إن المناطقَ الداخليةَ من الوطن التي تمَّتْ سيطرتُه عليها لا تستطيع أن تُقدِّمَ الموارِدَ الكافيةَ للتموين وتجهيز المقاتلين.

إن الحربَ تأكلُ الأخضرَ واليابسَ، إنها استنزافٌ ماليٌّ، وإنهاكٌ اقتصاديٌّ، ومن أينَ المالُ؟

إن البطل يعرف وطنه، وشُح موارده، ولقد ذاق الفقر واكتوى بآلامه، يقولُ ـ رحمه الله ـ لمحمد أسد: بلغَ مني الفقرُ مبلغاً عظيماً، حتى أنني اضطررتُ إلى أن أرهنَ سيفي المرصَّعَ بالجوهر ـ والذي كانَ

الشيخُ مباركٌ قد أعطانيه ـ لدى مُرَاب يهوديٍّ في الكويت، إنني لم أكن أستطيعُ أن أبتاعَ حتى سجادة لشدادي. ولكنَّ الأكياسَ الفارغةَ التي كنتُ أضعُها تحتَ الجاعد[١] تقومُ مقامَها.

إذا كانتْ هذه حالتَه المالية فكيفَ يقودُ الأمةَ؟! وكيفَ يجهزُ الجيوشَ؟!

إنها الثقةُ بالله، والإرادةُ والعزيمةُ. فها هي الأقاليمُ الغنيةُ بالخيراتِ الظاهرةِ والباطنةِ تنضمُّ وتعودُ.

وبعدَ رحيل الأتراك حدثَ أنْ وجَدُوا في البحرين مَنْ زَيَّنَ لهم الرجوعَ إلى العُقَير، الميناء الحيوي آنذاك في الساحل الشرقيِّ، ولهذا استولَوْا علَى مركب يحملُ تمراً، وركبَ فيه فريقٌ منهم، وعادُوا إلى العُقَير، فهجَمُوا لَيلاً علَى القَصر، فردَّتْهم الحاميةُ خائبينَ.

ثم هجمُوا على مركزين آخرَين كانَ في كل واحد منهما ثلاثونَ رجلاً، فهزمَهم الأتراكُ واحتلّوا مراكزَهم.

وجاءت الأخبارُ للملك الظافر وهوَ في الهفوف، فشدَّ الرحال، وسارعَ إلى العُقَير، فوصلَها في الساعة الثانية من الليل.

(١) الجاعد: جِلدٌ يوضع فوق ظهرِ الراحلة.

وكانَ قد أرسلَ كَوكبةً من الفرسان تسبقُه، وحينَ وصلتْ وجدتْ أن الحاميةَ الموجودَة هناك هاجمَتْ الأتراكَ، وهزمَتْهم، وأسرتْ منهم ثلاثين مهاجماً.

وعفا الملكُ عنهم، فأخلى سبيلَهم، وأركَبَهم البحرَ مرةً أخرى، ومن البحرين ركبُوا السفنَ إلى البصرة، ومكثَ الملكُ في الأحساء فترةً من الزّمن حتى اطمأنَّ على الأمور، وأمَّر فيها الأميرَ عبدَ الله بنَ جلوي، وعيَّنَ في القطيف عبدَ الرحمن بنَ سويلم أميراً لها، وعادَ إلى الرياض في العَشْر الأواخر من رمضانَ.

وأوصَى الملكُ أمراءَه بالعَدل بينَ الرعية وبمحاسَبَة المُجرمينَ ومُطارَدَة قُطَّاع الطُّرق.

وكانَت الطُّرقُ في الأحسَاء في عَهْد الأتراك مَخُوفةً مَرهوبةً. كانت لا تُعْبَرُ إلا بقوةٍ عسكرية أو بدفع (خوة)[1].

وكان الطريقُ بينَ العُقير والأحساء - وهو طريق التجارة إلى نجد- أكثرُ الطرقِ خوفاً وخطراً.

(١) الخوة: مبلغ من المال يُسلَّم لرجال البادية المسيطرين على الطريق، فلا يجتاز موقعهم أحد إلا وقد سلم مبلغا من المال، وإلا فالويلُ له.

كانَ التاجرُ الذي يَرومُ الوصول إلى الهفوف مسافة أربعينَ ميلاً يضطرُّ أن يدفعَ الخوَّةَ كلّمَا اجتاز خمسةَ أو عشرةَ أميال من هذا الطريق المخيف.

إنه طريقُ التجارة والأموال، ولكنه طريقُ الموت والهلاك. إنه طريقُ النهب والسلب والزعامات المتعددة.

وقد جاءَ هذا الطريقَ عددٌ من القبائل، وأقامُوا حولَه، وصارَ لكلِّ قوم جزءٌ، والويلُ لمن مرَّ به ولَم يدفَعْ لَهم.

كانَ يجيءُ التاجرُ من البحرين، فيدفعُ خُوّةً قبلَ أن تطَأ قدمُه العقير، ثم يدفعُ خُوَّةً أخرى من العقير إلى النخل، ثم ثالثةً من النخل إلى أمِّ الذرِّ، ثم من أمِّ الذرِّ إلى العلاة.. وهكذا، خوفٌ وسلبٌ..!

وإذا خرجَ عسكرُ الأتراك لتأديب أحد من عَشائر البادية المحيطة بهم طاردَهم أولئك البدوُ، وأخذُوا خيلَهم، وسَلبُوا ثيابَهم، وأجبرُوهم على العودة إلى الأحساء حُفاةً عُراةً.

ثم يجيءُ البدويُّ من أولئك الأعراب راكباً حصانَ الجنديِّ التركيِّ ليُنَعِّلَهُ على مرأى ومشهَد من السلطة المدنية داخلَ الأحساء.

وتولّى الملكُ عبدُ العزيز الأحساءَ وهذه حالُها الأمنيةُ؛ ولهذا نادَى: الأمنَ الأمنَ، العدلَ العدلَ.

وشرعَ أميرُ الأحساء من قِبَلِه عبدُ الله بن جلوي في بسط العدل ومُلاحقة المجرمين.

ويذكرُ الريحاني صوراً من الأمن الذي تحقَّق بعدَ تلك الفوضى وبعدَ السلب والنهب والخلَل والخطَل، فممَّا رواه يقول: مررْنا في النفود بجَمَل بارك، رازح تحت حمله، فسألتُ عن صاحبه، فقيل: إنه سارَ في طريقه، وسيرجعُ بعدَ أن يصلَ إلى البلد بجملٍ آخر يحملُ البضاعةَ.

وقد يموتُ الجملُ الرازحُ، ويبقَى حمْلهُ على قارعَة الطريق عشرةَ أيام، ويعودُ صاحبُه فيجدُه - وما مسَّتْه يدٌ بشريةٌ - كما تركَه في مكانه.

إنه الأمنُ الذي سادَ، والعدلُ الذي تحقَّقَ.

ويوردُ الريحانيُّ صورةً أخرَى من صور العدل، يقولُ: جاءَ رجلٌ ذاتَ يوم إلى الأمير عبدِ الله بن جلوي يشكُو ولداً ضربَه وشتمَه.

فسألَ عبدُ الله: مَن الولدُ؟

فقالَ الرجلُ: لا أعرفُ اسمَه.

فقالَ عبدُ الله: وهل تعرفُه إذا عاينتَه؟

فأجابَ الرجلُ: نعمْ.

فأمرَ الأميرُ أن يُجْمَعَ عندَه أولادُ ذاك الحيِّ. فأحضروهم كلهم، وجاء الشاكي فنظر إليهم وأشار إلى الولدِ الجاني، إلى غريمه.

فهمسَ أحدُ الحضورِ في أذنه، وقالَ له: إنَّه ابنُ الأميرِ.

فَجَمْجَمَ الرجلُ ببعض الكلمات، أرادَ بها الاعتذارَ والعدولَ.

وردَّه الأميرُ، وسألَ الولدَ: فأقرَّ بذنبه.

وأمَر الأميرُ العبيدَ أن يبسطوه أمامَه، وأن يقدموا للشاكي عسيباً أخضرَ من النخل.

وتَردَّد العبيدُ، وأحْجَم الرجلُ، وأخذَ الأميرُ القضيبَ بيده، وشرعَ

يضربُ ابنَه، ويقولُ: إذَا كنَّا لا نبدأ بأنفسنا فكيفَ نعدلُ في غيرنا؟!

إنه يُجسِّدُ العدلَ في أروَع صُوَره، ويضربُ المثلَ في فَلذة كَبده، هؤلاء أمراءُ المَلك عبد العزيز يحاكُونَ عمرَ بنَ الخطَّاب في عَدْله حينَ استدعَى عَمْرو بنَ العَاص وابنَه إلى المدينة؛ فقدْ تسابقَت الخيلُ، وفازَ حصانُ المُواطن المصْري، وغضبَ ابنُ عَمرٍو، وضربَ صاحبَ الحصَان، وقالَ: خُذْها وأنا ابنُ الأكرَمَيْن.

وجاءَ المصْري إلى المدينَة واشتكَى، واستدعَى عُمَرُ أميرَ مصْرَ وابنَه، وحينَ تأكَّدَ من حقيقة الأمر أمَرَ المصريَّ أن يضربَ ابنَ عَمرو وأن يقتصَّ لنَفسه، وأن يُجلَّ العصَا على صَلْعَة عَمْرو، ويقولُ: ما ضربَكَ هذَا إلا بسُلطان هَذا. ويا عَمرُو، متَى استعبدتُم الناسَ وقدْ ولدَتْهُم أمهاتُهم أحراراً؟!

ويقولُ الريحاني في صورة ثالثة: كنا في العُقير نحتاجُ إلى الكثير من الحطب، وكانَ يجيءُ البدوُ بأحمال منهُ يبيعُونها إلى رُؤساء الخدم بأسعار غالية لقلة الحطب في ذاك المكان، ولعلمِهم بحاجة الملكِ عبدِ العزيزِ وضيوفِه.

ووقفَ يوماً أحدُ هؤلاء الحطَّابين ومعَه أربعةُ جمال محمَّلة، فساومه مندوبُ الملك عليها، فطلب الجمَّالُ رُوبيَّتَين، والحملُ كلّه يساوي نصف روبية. ثم خفَّض الجمالُ القيمةَ إلى روبيَّة ونصف روبية، فرفضَ مندوبُ الملك شراءَها؛ فالقيمةُ عاليةٌ.

وساقَ الجمَّالُ جمَالَه، فناداه المندوبُ، ودفعَ له روبيةً، فأبى الجمَّال. فغضبَ المندوبُ، وشتمَ الجمَّالَ بعدَ أن تولّى وأدبرَ، وقالَ وقد تأوَّهَ: والله لولا الشيوخُ ـ يقصد الملكَ عبدَ العزيز ـ لأدَّبْتُك أيُّها الجمَّالُ.

ويقولُ الرِّيحاني: لو كُنَّا في معسكر تُركي أو أوربي وكانَ الجيشُ بحاجة إلى الحطب فهلْ تظنُّ أنهم كانُوا يعاملونَ هَذا الحطابَ مثلَ هذه المعاملة؟!

بلْ كانُوا يكرهُونَه علَى البيعِ بما يُريدونَه، ثم يُسخِّرونه للخدمة دُون رغبته.

لولا الشيوخُ ـ يقصدُ الملكَ عبدَ العزيز ـ لفعلَ الخدامون بالبدو الحطَّابين مثل هذه الفعلات. ولكنَّ حقَّ البدوِ يُعْطَوْنَه. وحقُّهم أن

يبيعُوا ما يملكونَ بما يشاؤون.

أمَّا حَقُّ ابنِ سُعود فيُؤخذُ منهم بالعَدل.

وروى لي أحدُ الثقات قصةً عن أبيه يقولُ فيها: قدمْنا من الأحساء ذاتَ عام ومعَنا عددٌ من الإبل، وكانتْ تحملُ هيلاً وقهوةً وسكراً، وفي الطريق فقدنا أحدَ الجمال، وبحَثْنا عنه، وبعدَ يومين وجدْنا إبلاً تمشي على البُعد، ومعها عددٌ من رجال البادية، وحين اقتربنَا أطلقَ أحدُ رِفاقنا النارِ في الهواءِ تحذيراً وتخويفاً.

ووصلْنا إلى القوم وسألناهُم عن الراحلة، فقالُوا: ها هي مع الإبل وعليهَا حِمْلُها لم يُمَسَّ. قلنا: رُدّوها علينا، أخرجوها من قطيعكم. فقالوا: سمعاً وطاعة.

وتنهَّدَ عددٌ منهم، وقالوا: كيفَ تطلقونَ النارَ، والله لولا ابنُ سعود ما تجرَّأتم، ولولا ابنُ سعود لما أعدناهَا، ولأخذْنَا بقيةَ إبلكم غنيمةً وسلباً.

ادعُوا لابن سعود. ادعُوا لأميره في الأحساء عبدالله بن جلوي.

هذه صورٌ من الأمن والعدل الذي تحقَّقَ.

رحمَ الله الملكَ عبدَ العزيز؛ فقد ألزمَ نفسَه هذا المنهجَ، وورَّثَه أبناءَه، وجعلَ الشريعةَ الإسلاميةَ أساسَ الحكم ومنهجَ الدولة السعودية.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

كمَا أنَّ هذه المعاملةَ العادلةَ جعلتْ مناطقَ المملكة تحنُّ إليه، وأقاليمَ الوطن تتلهَّفُ إليه، وتمدُّ له الأيدي، وينادي سكانُ كلِّ منطقة باسمه وينشُدون وصولَه، ويطلبُونَ زعامتَه.

وفي القصة القادمة حديثٌ عن الحرب المهلكة وكيفَ تعاملَ معَها؟

وكمْ حاربَ أثناءَها من خصومٍ وأعداءَ؟

العبيكان
Obeikan
(٠١) ٤٩٨٢٣٩٤